من ظرفاء العصر العباسي :

أبو دلامة

توفي سنة ١٦١ هـ

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

— ٥ —

ونلاحظ أن أبا دلامه لم يكن يصله — غالباً — شيء من المال إلا بنادرة كما رأينا في قصة سلمة الوصيف ، أو بحيلة كما سنرى الآن في قصته مع العباس بن محمد — عم المهدي — الذي كان من أبخل الناس :

دخل أبو دلامة يوماً على المهدي ، فحادثه ساعة وهو يضحك وقال له : هل بقي أحد من أهلي لم يصلك ؟ قال : إن أمنتني أخبرتك ، وإن أخفتني فهو أحب إلي . قال : بل تخبرني وأنت آمن . قال : كلهم قد وصلني إلا حاتم بني العباس . قال : ومن هو؟ قال : عمك العباس بن محمد . فالتفت إلى خادم على رأسه وقال : جَأ[1] عنق العاض بظر أمه . فلما دنا منه صاح به أبو دلامة : تنح يا عبد السوء لا تحنث يمين مولاك وتنكث عهده وأمانه . فضحك المهدي وأمر الخادم فتنحى عنه ، ثم قال لأبي دلامة : ويلك ! والله عمي أبخل الناس . فقال أبو دلامة : بل هو أسخى الناس . فقال له المهدي : والله لو مت ما أعطاك شيئاً . قال : فإن أنا أتيته فأجازني ؟ قال : لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم. فانصرف أبو دلامة فخبر العباس قصيدة ثم غدا بها عليه وأنشده :

قف بالديار وأيّ الدهر تقفِ على المنازل بين الظهر[2] والنجف
وما وقوفك في أطلال منزلة
لولا الذي استدرجتْ من قلبك الكلف
إن كنت أصبحت مشغوفاً بساكنها
فلا وربك لا تشفيك من شغف

(١) جأ : اضرب .
(٢) الظهر : موضع . والنجف (بالتحريك) موضع بظهر الكوفة وهو دومة الجندل بينها ، وبالقرب منه أمير المؤمنين علي بن طالب .

لايعدو ما ذكرته في مكانته من الحقيقة . وحسبك — في كشف الغطاء عنه — أن تواصل قراءة تلك النصوص في المقدمة عينها لينطق لك ذلك الكلام (المبتور) بأن ابن خلدون إنما عنى بقوله (العرب) ، العرب الذين يعرفهم الناس منذ خلق الله العرب في الناس !

وأما الكاتب الفرنسي الذي أشرت إليه في بداية هذه الكلمة وقلت إن الأستاذ الحضري استشهد به ، فهو الأستاذ (العربي[1]) البارون (دوسلان) ، وقد ترجم مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية قبل ثمانين عاماً ، وقال فيها عن مدلول كلمة العرب عند ابن خلدون ما يلي :

Les arabes (Jbni Khaldoun) sont les arabes nomades (٢)

وترجمة ذلك : « أن عرب ابن خلدون هم الأعراب . . » .

كما أن الكاتب التركي الذي أشار إليه الأستاذ الحضري هو المؤرخ (جودت باشا) . وقد ترجم كلمة عرب — كما يقول الأستاذ في (دراساته) اعتماداً على ما فهم من كلام ابن خلدون ، فأثبتها :

« في مواضع كثيرة على شكل (قبائل عرب) . . [1] » .

ومن هنا (أكاد) أجزم بأن الأستاذ الحضري إنما جاء بهذا الرأي الجديد نقلاً عن هذين الكاتبين . وإنني لا أجد تعليلاً (لوهمهما) هذا إلا أنهما أبصرا في بعض المواضع اقتران كلمة العرب بالإبل والخيام فحسبا أن عرب ابن خلدون ليسوا سوى أهل البادية من الأعراب . غير أن الحقيقة التي لا تغيب عن باحث هي أن ابن خلدون لم يكن يدقق في التمييز بين أهل البادية وأهل الحاضرة من العرب ، فكان يسميهم جميعاً (عرباً) على أنه كان يستعمل كلمة (الأعراب) أو (البدو) حين يريد أن يحصر مدلول كلامه في حدود معينة . وهذه الحقيقة مشاهدة في مقدمته ، وظهورها أعم وأبين في دراسات الأستاذ الحضري عن ابن خلدون ، وذلك حين يحصي عدد ما أورد ابن خلدون من كلا التعبيرين فيقول أنه ذكر العرب (كذا) مرة ، وذكر الاعراب (كذا) مرة . وقد ذكر ذلك وعلقت عليه في خلال ما أسلفت .

(البقية في العدد القادم)

محمد سليم الرشدان
مجستير في الآداب واللغات السامية

(١) استعمل هذا اللفظ بمعنى (المشرق) للرحوم النفاخلي
(٢) Les Prolegomenes d.Ibni khaldoun vol 3 rag488

(١) دراسات ص ١٢٣ س ٢٠ ج١ ط بيروت

دَع ذا وقُل لى الذى قد فاز من مُضر
بالمكرمات وعز غير مقترف[1]
هذى رسالة شيخ من بنى أسد
يهدى السلام إلى العباس فى الصحف
تخطها من جوارى المصر كاتبة قد طالما ضربت فى اللام والألف
وطالما اختلفت صيفاً وشاتية إلى مصلها باللوح والكتف
حتى إذا نهد الثديان وامتلأا
منها وخيفت على الأسراف والقرف[2]
صينت ثلاث سنين ما ترى أحداً كما يصون تجار درة الصدف
فبينما الشيخ يهدى نحو مجلسه مبادراً صلاة الصبح بالسدف[3]
حانت له لمحة منها فأبصرها مطلة بين سجفيها من الغرف
فكر والله ما يدرى غداتئذ أخر متكشفاً أم غير منكشف
وجاءه الناس أفواجاً بمسألهم
ليغسلوا الرجل الغشى بالنطف[4]
ووسوسوا بقُسران فى مسامعه مخافة الجن والإنسان لم يخف
شيئاً ولكنه من حب جارية أمسى وأصبح موقوفاً على التلف
قالوا : لك الويل ما أبصرت ؟ قلت لهم
تطلعت من أعالى القصر ذى الشرف
فقلت — ايكم والله يأجره — يعين قوته فيها على ضعف
فقام شيخ يعنى من رجالهم قد طالما خدع الأقوام بالحلف
فابتاعها لى بألفى درهم فأتى بها إلىّ فألفاها على كتفى
فبتُّ ألثمها طوراً وأتبعها
طوراً وأمتع بعض الشىء فى اللحف
فبين[5] ذاك كذا إذ جاء صاحبها
يبغى الدراهم بالميزان ذى الكفف
وذكر حق على زند[6] وصاحبه والحق فى طرف والطين فى طرف
وبين ذاك شهود لا يغرهم أكنت معترفاً أم غير معترف
فإن يكن منك شىء فهو حقهم أو لا فإنى مدفوع إلى التلف

(١) مقترف : مكتسب .
(٢) القرف : التهمة . (٣) السدف : الظلمة
(٤) النطف : جمع نطفة (بالضم) وقد مر أنها الماء الصافى قل أو كثر .
(٥) المشهور فى مثل هذا أن يقال : فبينا ذاك كذا أو (بينما) وقد جاء بها أبو دلامة هنا على الأصل .
(٦) زند هو اسم أبى دلامة كما مر .

فضحك العباس وقال : ويحك أصادق أنت ؟ قال نعم والله . قال : يا غلام ادفع إليه ألفى درهم ثمنها . فأخذها ثم دخل على المهدى فأخبره القصة وما احتال له به . فأمر له المهدى بستة آلاف درهم وقال له المهدى كيف لا يضرهم ذلك ؟ قال : لأنى معدم لا شىء عندى . وفى رواية : إن العباس بن محمد قال له : شاركنى فى هذه الجارية يا أبا دلامة . قال : أفعل ولكن على شريطة . قال : وما هى ؟ قال : الشركة لا تكون إلا مفاوضة[1] فاشتر معها أخرى ، ليبيت كل منا إلى صاحبه ماعنده ، ويأخذ الأخرى مكانها ليلة وليلة . فقال له العباس : قبحك الله وقبح ماجئت به ! خذ الدراهم لا بارك الله لك فيها وانصرف[2] .

وإنما أوردنا هذه القصة بتمامها لكيلا تمسخها إذا اختصرناها فتفقدها كثيراً من جمالها : ولعلك تذكر أننا استشهدنا بها على وصول أبى دلامة إلى المال بأسلوب الاحتيال ، ولاسيما مع البخلاء من الناس .

والواقع أنه كان لا ينجو من تنادر أبى دلامة وهجائه إلا من أعطاه فأجزل عطيته . وإنه ليكون المرء أبغض الناس إلى قلبه ، فإن هو وصله بشىء أضحى أحبهم إليه . وكان الناس يفرون من هجاء أبى دلامة فرارهم من تنادره بهم ، فإذا تجرأ أحدهم على النيل منه أو ذمه عرف كيف يسلقه بلسانه الحاد .

دخل أبو دلامة على المهدى وعنده محرز ومقاتل أبنا ذؤال يعاتبانه على تقريبه أبا دلامة وتبييانه عنده . فقال أبو دلامة :

ألا أيها المهدى هل أنت مخبرى وإن أنت لم تفعل فهل أنت سائلى ؟
ألم ترحم الشيخين من لحيتيهما وكلتاهما فى طولها غير طائل ؟
وإن أنت لم تفعل فهل أنت مكرمى بحلقهما من محرز ومقاتل ؟
فإن يأذن المهدى لى فيهما أقل مقالاً كوقع السيف بين المفاصل
وإلا[3] ندعى والهموم تنوبنى وقلبى من الملجين جم البلابل

فلم يدعه الخليفة للهموم تنوبه ، وإنما ساعده على الملجين فقال له يتم أمثلك : أو آخذ لك منهما عشرة آلاف درهم يفديان بهما أعراضهما منك ؟ قال ذلك إلى أمير المؤمنين . فأخذها له منهما وأمسك عنهما[4] .

(١) شركة المفاوضة هى الشركة العامة فى كل ما يملكه الشريكان .
(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ٢٦٥ .
(٣) فعل الشرط محذوف — أى وإلا تفعل تدعنى .
(٤) الأغانى جـ ١٠ ص ٢٦٤ .

فلا يُرضي المهديَّ إذاً أن يسمع من أحد تجريحاً بشخص أبي دلامة لأنه واجدٌ فيه أنسه ومرحه ، وقابلٌ إياه على ما فيه من عيب ومنقصة ... ولا يُرضي أبا دلامة ويُسكتُ لسانه السليط إلا المالُ يُعطاه وفيراً !

وكما يهجو أبو دلامة مخلوقاً أملاً في الوصول إلى بعض ماله ، تراه يمدح آخر للغرض ذاته . وقد ينتظر مطلوبه من سواه كما حدث يوم دخل أبو دلامة على المهدي وعنده شاعر ينشده . فقال له : ما ترى غيه ؟ قال : إنه قد جهد نفسه لك فاجهد نفسك له فقال المهدي : وأبيك إنها لكلمة عذراء منك أحسبك تعرفه ! قال : لا والله ما عرفته ولا قلت أنا إلا حقاً . فأمر للشاعر بجائزة ، ولأبي دلامة بمثلها لحسن حضوره[1] .

ولقد صدق أبو دلامة ، فما كان أطراؤه للشاعر عن معرفة سابقة به أو بعد وقوف على شيء من شعره — وإنما هي كلمة تعجب المهدي وتسر قلبه ، وهي — بعد ذلك — وسيلة هينة للوصول إلى شيء من المال الذي يجزى به الخليفة من كان لبقاً حديثهُ ، حاضرة بديهته ، سديداً جوابه .

وكما درس أبو دلامة نفسية المنصور فاستطاع أن يأخذ منه الجوائز السنية — على بخله — عرف كيف يفهم المهدي حتى فهمه لكي ينال منه — في مختلف المناسبات — أكثر مما يحلم به . وتجده لذلك يحرص على إضحاك الخليفة الذي تفيض بداه كلما تهلل وجهه : خرج المهدي وعلي بن سليمان إلى الصيد ، فمنع لهما قطيع من ظباء ، فأرسلت الكلاب وأجريت الخيل ، فرمى المهديُّ ظبياً بسهم فصرعه ، ورمى عليّ بن سليمان فأصاب بعض الكلاب فقتله . فقال أبو دلامة :

قد رمى المهدي ظبياً ... شك بالسهم فؤادَهْ
وعلي بن سليما ... نَ رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما ، كل ... امرىء يأكل زادَهْ !

فضحك المهدي حتى كاد يسقط عن سرجه ، وقال : صدق والله أبو دلامة ، وأمر له بجائزة سنية . ويقال : إن علي بن سليمان لقب منذ ذلك اليوم « صائد الكلاب » وعلق به[2] .

(١) الأغاني جـ ١٠ ص ٢٦٤ .
(٢) الأغاني ١٠ ص ٢٥٩ .
١٨ - ٣٣

وما دام الخليفة يملأ عين أبي دلامة ويشبع بطنه ويبسطه من المال ما يجعله مغموراً بفضله ، فما على الظريف إلا الإخلاص في طاعته ، والصدق في محبته ، وإدخال السرور عليه ولو لم ينتظر منه شيئاً ، لأن فضله سابق عليه : لذلك كان أبو دلامة ينتهز الفرصة ليثبت أن تقريب الخليفة له مصيبٌ موضعه ، فهو الذي ينفس عنه كربه ، ويسري عنه غمه ، ولو كان هو نفسه مغموماً .

مر أبو دلامة بنخاس يبيع الرقيق ، فرأى عنده مغنيٌّ من كل شيء حسن ، فانصرف مهموماً ، فدخل على المهدي فأنشده :

إن كنت تبغي العيش حلواً صافياً ... فالشرَ أجنبْه وكن نخاسا
تنل الطرائف من ظراف تهتدي ... بحدثن كل عشية أعراسا
والريح فيما بين ذلك راهنٌ ... سمحاً بيمنك كنت أو مكاسا[1]
دارت على الشمراء حرفة نوبة ... فتجرعوا من بعد كأس كاسا
وتسربلوا قُمص الكساء فحاولوا ... بالنخس كسباً يذهب الإفلاسا

فجعل المهدي يضحك منه[2] .

وليضحك الخليفة ما شاء فما نص عليه أبو دلامة هذه القصة ولا نظم ذاك الشعر إلا ليضحكه ويسري عنه ، ويحيطه بجو مشبع بالأنس والسرور !

(يتبع)

صبحي إبراهيم الصالح

(١) نكس في البيع ينكس (من باب ضرب) نقص الثمن والمراد هنا المشاحة في البيع والشراء .
(٢) الأغاني جـ ١٠ ص ٢٥١ .

تاريخ الإسلام للذهبي

صدر الجزء الثالث ، ثمنه ٦٠ قرشا

المؤلف من أكبر مؤرخي الإسلام وأوثقهم ، وهو حجة العلماء في نقد الرجال وتراجمهم ، وتصانيفه في التاريخ كانت ولا تزال عمدة المؤرخين في عصره وبعد عصره

يباع بمكتبة القدسي بجوار محافظة القاهرة (س . ت ١٦١٥)